ملامح من تاريخ الحجاز

في أوائل عهد الدولة السعودية الأولى

د · أحمد فؤاد متولي

امتلأت منطقة الحجاز بالقلاقل والفتن في أوائل عهد الدولة السعودية الأولى · فقد تميزت هذه الفترة بالصراع المرير بين بعض الأشراف وبعض على منصب الامارة في مكة المكرمة · واتخذ الصراع صورا دامية سجلتها بعض الكتب المعاصرة للفترة ، وأشفقت على البلد الحرام من هذه المنازعات التي اتخذت شكلا مسلحا ، ازداد عنفه في بعض الفترات ·

وفي هذه الفترة التي اشتد فيها الصراع في الحجاز ، ظهر السعوديون في نجد وقويت شوكتهم بسرعة وازداد أنصارهم وأتباع دعوتهم · وقد عدهم الأشراف خصوما لهم بل وأعداء للدين الحنيف ، على الرغم من أن الدعوة السلفية التي ناصروها لم تخرج عن تعاليم الاسلام السمحة · وتعد احياء لتعاليم الدين الحنيف وعودة اليها ·

ورغم الصراع المرير الذي دار بينهم على منصب الامارة ، الا أنهم اتخذوا بعض الاجراءات العدائية الاستفزازية ضد أتباع الدعوة السلفية · كان من بينها منع الحجاج من أهل نجد من أداء فريضة الحج خاصة في عهد الشريف أحمد بن سعيد (١) ·

أما الشريف سرور بن مساعد (حكم ١١٨٦ ــ ١٢٠٢هـ) ، فقد أذن للحجاج من أهل نجد بأداء الفريضة ، كما أنه لم يقم بمعاداة نجد في أوائل عهده (٢) · لكنه عاد ومنع الحجاج النجديين فيما بعد (٣) ·

وتطالعنا الوثائق التركية بمراسلات أرسلها الشريف سرور الى السلطان العثماني يحثه على أخذ الحيطة والحذر والبدء في الاستعداد لصد هجوم مرتقب من قبل الوهابيين على الحجاز ، ويطالب السلطان بامداده بالمساعدات المادية والعسكرية ، لكي يتمكن من صد السعوديين ومقاومتهم (٤) . كما أرسل يطلب مساعدة والي بغداد ثم والي الشام ، لدرء الخطر المنتظر من آل سعود على حد قوله (٥) .

وتشير بعض الكتب التركية الى أن المساعدات لم تأت من أي مكان للشريف سرور ، وباءت مساعيه بالفشل . فقد قوبل طلبه من جانب الدولة العثمانية بالفتور ، حيث اعتقد السلطان أن الخلافات بين نجد والحجاز لا تعدو أن تكون خلافات في الرأي ، لن تؤدي الى اعتداء بين الطرفين . هذا فضلا عن أن الحرب مع روسيا والنمسا والبندقية كانت شغل الدولة الشاغل (٦) . كما تهاون والي بغداد ووالي الشام ، وتكاسلا ولم يحرك أي منهما ساكنا ، يدفعهما الخوف والفزع من العواقب (٧) .

وتابع الأشراف سيرة الدعوة السلفية باهتمام وماكانوا كأكثر الناس في ذلك العهد ، يتوقعون لها نجاحا . على أن نظرتهم اليها أخذت تتبدل بعد أن شرقت وغربت ، وضمت معظم مقاطعات نجد اليها وأدخلتها في دائرة طاعتها ، وأنشأت فيها دولة جديدة يحسب حسابها (٨) .

والواقف على تاريخ الأشراف في الحجاز يرى أنه تاريخ مملوء بالدماء والفظائع ، فالشريف منهم لم يكن يتورع عن قتل أخيه وأبناء عمومته في سبيل الحكم (٩) .

يورد المؤرخ التركي أحمد جودت باشا (١٠) في المجلد الخامس من كتابه « تاريخ جودت » مايأتي عن الأشراف في الحجاز في عهد الشريف غالب ابن مساعد (١١) :

« سالت دماء غزيرة من جراء الحروب التي وقعت بين الأشراف بعضهم البعض في مكة المكرمة مهبط الوحي الالهي . ولما تمادى اخوة الشريف غالب ابن مساعد أمير مكة المكرمة في الخلاف فيما بينهم في العام الماضي (١٢٠٣هـ)، جهز كل طرف جنوده ، ونشبت معارك طاحنة ، فسعى قاضي مكة المكرمة ومفتيو المذاهب الأربعة للتوسط بين المتخاصمين ، وتمكنوا من اقامة الصلح بينهم » .

ويفهم من التحريرات التي وردت الى أغا دار السعادة سنة ١٢٠٤هـ ، أن حربا شديدة دارت بين الشريف غالب أمير مكة المكرمة وابن أخيه الشريف عبد الله داخل مكة المكرمة في التاسع والعشرين من شهر صفر الخير .

وقد نتج عن شدة التراشق الذي استمر ثلاثة أيام متوالية بالبنادق والمدافع المقامة على القلعة ، أن توقف الأذان ، وأعيقت الصلاة تسع عشرة مرة . وقد كسرت قطعة من الحجر الأسود تقدر بعرض ثلاثة أصابع ، من جراء انهمار الرصاص الكثيف الذي أصابه . ثم سقط الحجر كله ، وأعيد الى مكانه بعد انتهاء المعارك ، ملصوقا بالكلس المعجون بالزيت . وبعد ذلك تجمهر الناس غاضبين ، وقدموا النصيحة للأشراف : « أن قاتلوا خارج الحرم ان قاتلتم كما جرت العادة لديكم قديما ، ثم أنهوا خلافاتكم ان حربا أو سلما » .

التجأ الشريف عبد الله الى قبيلة هذيل بجنوده ، ثم دخل مكة المكرمة في جمع غفير مرة أخرى . وعندما نزل بموضع يقال له المعابدة ، خرج الشريف غالب لمقابلته بعساكر كثيرة . ونشب بين الطرفين قتال شديد ، سقط على أثره عدد كبير من الطرفين . ولما لم تحسم المعركة ، انسحب الشريف غالب الى مكة المكرمة ، واستولى الشريف عبد الله على الطائف (١٢) .

ونظرا الى أن الوضع ظل على حاله ، فقد علم أنه صدر أمر عال للشريف غالب ، يقضي بدرء الخلافات ويوصي برفع الأذى بكل صوره عن فقراء الحرمين الشريفين . وفي نفس الوقت أرسل أمر آخر الى « أوزون (١٣) ابراهيم باشا » أمير الحج لحثه على تقديم النصيحة للفريقين ودفعهما الى التحلي بضبط النفس ، واصلاح ذات البين (١٤) .

وطبقا لما أورده المؤرخ عبد الشكور أفندي ، حدثت هذه القلاقل منذ أن كان للشريف سرور (المتوفي) أخي الشريف غالب معاون يدعى يحيى سلتوح ، واذا كان الشريف غالب قد زج به في السجن لتاكده من أنه مجبول على اثارة الفتن والقلاقل ، الا أنه تمكن من الفرار من سجنه بعد مدة ، واختفى في منزل أبناء الشريف سرور . ولما لم يحصل الشريف غالب على خبر له في أي مكان رغم التفتيش الدقيق ، ذهبت به الظنون الى أنه قصد مكانا بعيدا . أما يحيى سلتوح فقد هيأ أسباب الفتنة والفساد خفية ، باغرائه للشريف عبد الله ابن الشريف سرور بدعوى الامارة . ومع أن الشريف عبد الله كان طفلا غير بالغ ، حيث لم يصل عمره الثانية عشرة بعد ، الا أنه خدع بكلامه ، وسيطرت عليه فكرة الامارة . وأمر بمحاصرة منزل الشريف غالب واطلاق الرصاص عليه . ثم التقيا في ناحية ، واستمر اطلاق الرصاص بينهما داخل مكة المكرمة لمدة أربعة أيام متوالية بلياليها ، خلت فيها الشوارع من المارة لتعذر المرور ، وتوقفت الصلاة في الحرم الشريف ، حتى لم تقم صلاة احدى الجمع .

وبعد ذلك ، خرج الشريف عبد الله وأخوه الشريف محمد وكثير من الأشراف المناصرين له ، وتوجهوا الى « المعابدة » . وتبعهم يحيى سلتوح وعدد من عبيد الشريف سرور (المتوفي) وأتباعه . فأعد الشريف غالب عساكره وتحرك لمواجهتهم ، وانتصر عليهم ، فمضوا الى الطائف واستولوا عليها ، ثم تحركوا قاصدين مكة المكرمة بقوة كافية جمعوها من عدد من القبائل . وخرج الشريف غالب من مكة المكرمة . وانتصر عليهم في الملحمة الكبرى التي وقعت في وادي الريان (١٥) . وقبض على الشريف عبد الله وأخيه ، وفرق جموعهم وجنودهم وشتتها . ومع ذلك عفا الشريف غالب عن ابني أخيه وعاملهما معاملة حسنة ، حيث خصص لهما الرواتب والتعيينات .

وبعد هذه الهزيمة ، فر يحيى سلتوح قاصدا الشام عن طريق المدينة المنورة . ولما وصله ، كتب « عرضحال » (١٦) ضمنه المطالبة بتوجيه الامارة للشريف عبد الله . وقصد الأستانة . ومع أنه قدم العرضحال المذكور للأعتاب العلية ، الا أنه لم يجد استجابة ، فتوجه الى مصر ياشا (١٧) » .

ويعلق المؤرخ التركي أحمد جودت باشا على هذه الأحداث ، قائلا : « لو كان زمام الأمور في مكة المكرمة انتقل الى ذلك الصبي الصغير ، لساد الفساد وعمت الفوضى في جنبات هذا البلد الأمين مهبط الوحي الالهي » .

الهوامش

١ ـ أحمد السباعي : تاريخ مكة ، جـ١ ، ص ٣٠٢ ـ القاهرة ١٩٥٢ .

٢ ـ انظر : د. منير العجلاني : تاريخ البلاد العربية السعودية ، جـ ١ ، ق١ ، ص ١٣٦ بيروت (د.ت) .

٣ ـ انظر أحمد السباعي : نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٢٤٥ .

٤ ـ انظر الوثيقة رقم ٣٤٥٢ المحفوظة في متحف طوبقبو سرايي باستانبول .

٥ ـ انظر الوثيقة رقم ٦٨٢١ المحفوظة في متحف طوبقبو سرايي باستانبول .

6. Bir Heyet : Mufassal Osmanli Tarihi, cilt 5, s. 2703 Istanbul 1962

٧ ـ انظر : أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، م٥ ، ص ٩٢ استانبول ١٣٠٢هـ .

٨ ـ أمين سعيد : تاريخ الدولة السعودية ، ص ٦٢ ، ٦٣ بيروت ١٩٦٤ .

٩ ـ حافظ وهبه : جزيرة العرب في القرن العشرين ، ص ١٥٠ القاهرة ١٩٦٧ .

١٠ ـ أحمد جودت باشا : مؤرخ تركي مشهور ، ولد في ٢٧ مارس ١٨٢٢م (١٢٣٧هـ) في لوفجة ببلغاريا ، أيام أن كانت تابعة للامبراطورية العثمانية .

عينه السلطان عبد الحميد الثاني ١٢٩٣ ـ ١٣٢٧ (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩م) مؤرخا للوقائع في وظيفة (وقعة نويس) ، ثم كلفه بكتابة تاريخ للدولة العثمانية . بدأ المؤرخ كتابه عن التاريخ العثماني في سنة ١٢٧٠هـ ، وسماه « تاريخ جودت » . وقد أكمل اثنى عشر مجلدا ، بدأها من ١١٨٨هـ (١٧٧٤م) الى ١٢٤١هـ (١٨٢٦م) =

= ويعد الكتاب مرجعا هاما في تاريخ الدولة العثمانية في الفترة التي تمتد من ١١٨٨ ـ ١٢٤١هـ ، لأن المؤلف بذل فيه قصارى جهده معتمدا على الوثائق والمخطوطات التي أتاحتها له وظيفته الرسمية في الدولة ككاتب للوقائع ٠ كما اعتمد على بعض المصادر العربية والانجليزية والفرنسية والألمانية في كتابة تاريخه ٠

وقد طبع الكتاب عدة طبعات بالحروف التركية العثمانية ٠ وقام عبد القادر افندي الدنا رئيس محكمة تجارة بيروت ، بترجمة المجلد الأول من الكتاب ، وطبعه في مطبعة جريدة بيروت ١٣٠٨هـ ٠

ومن الجدير بالذكر أن الكتاب طبع طبعة حديثة مبسطة بالحروف التركية الحديثة في خمسة مجلدات ٠ وقد قام دوندار كونداي بتبسيط الكتاب ، كما رتبه ونظمه مؤمن جويك ٠ وصدر في جريدة صباح ١٩٧٢م ٠

[انظر مقدمة كتاب
Dündar Cünday : Tarihi Cevelet, 5. 1 - 12 Jst 1972]

١١ ـ أحمد جودت باشا : المرجع السابق ، م٥ ، ص ٣٠ ، ٣١ ٠

انظـــر :

12. Bir Heyet : Geçen Eser, cilt 5, s. 2703

وانظر أيضا :

Yilmaz Oztuna : Osmanli Tarihi, cilt 11, s. 124 Ist. 1967

١٣ ـ أوزون : كلمة تركية الأصل معناها طويل ٠

انظـــر :

14. Bir Heyet : Ayni Eser, ayni cilt, ayni sayfa

وانظر أيضا :

Ismail Hami Danismend : Izahli Osmanli Tarihi Kronolojisi, cilt 4. s. 85 Istanbul 1972.

١٥ ـ يقول الدكتور منير العجلاني في كتابه « في سنة ١٢٠٣هـ اغرى أحد انصار الشريف سرور أحد أولاده ، وهو الشريف عبد الله بن سرور ، وكان صبيا لا يتجاوز عمره الثانية عشرة ، بان يطلب الشرافة لنفسه ، وجمع له ٥٠٠ عبد ، وضربوا بالرصاص على بيت الشريف غالب ، وقطعوا طرقات مكة أياما ، ثم تم التغلب عليهم ٠

[د٠ منير العجلاني : المرجع السابق ، جـ١ ، ق٢ ، ص ١٣٨] ٠

١٦ ـ عرضحال : شكوى ، ظلامة ٠ اصطلاح عربي الأصـــل مكون من لفظين : (عرض) و (حال) ٠

انظر أيضا :

17. Bir Heyet : Geçen Eser, s. 2704.